# المخدرات والثقافة الشعبية
# الإعلام والهوية فى المجتمع المعاصر*
## عرض كتاب

محمود عبدالله**

هذا الكتاب يتكون من خمسة أجزاء، تتفرع إلى خمسة عشرة فصلا، بواقع 290 صفحة، كما يحتوى على مقدمة للكتاب، توضح أقسامه وأهدافه، ومقدمات لكل جزء على حدة، للوقوف على أهم الأفكار الواردة داخل كل فصل على حدة. ومحرر هذا الكتاب هو بول مانينج رئيس قسم السينما والإعلام فى جامعة وينشستر. وتهتم دراساته بمجالات التصوير الرمزى لاستهلاك المخدرات فى الثقافة الشعبية، وسوسيولوجيا الصحافة.

ويقدم هذا المجلد إسهامات لخمسة عشرة مؤلف يقاربون فيه العلاقة بين استهلاك المخدرات والثقافة الشعبية من مواقع علمية مختلفة، فى علوم الاجتماع والجريمة والدراسات الثقافية ودراسات الإعلام والسينما. والهدف منه هو الوقوف على أساليب نقل التصورات الثقافية لتعاطى المخدرات، وطرق استمرار الممارسات الثقافية ذات الصلة باستهلاك المخدرات فى الحياة اليومية.

---

* Drugs and Popular Culture Drugs: Media and Identity in Contemporary Society, Edited by Paul Manning, USA, Willan Publishing, 2007.

** مدرس علم الاجتماع، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

*تاريخ تقديم المقال للنشر: 2015.*

ورغم التباين فى المقاربات العلمية المتبناة، تجتمع فصول هذا المجلد على فرضيتين: أولها: أن استهلاك المخدرات يعد ممارسة ثقافية شعبية وتعد وسائط نشرها عبر المجتمع ذات أهمية. ويتجلى الفارق الدقيق بين المخدرات الشرعية وغير الشرعية عبر التصورات والتعريفات والمفاهيم الثقافية التى تتشكل بحسب الوضع السياسى والاجتماعى، وهو ما يؤكد الطابع الثقافى للمخدرات. ثانيا: الأبعاد الرمزية لتعاطى المخدرات مرتبطة بالأوضاع التاريخية. فالأبعاد الرمزية سواء أكانت لغة مستخدمة أو رموزا أو صورا مجازية لها تاريخ ملموس.

يتكون الجزء الأول من فصلين، وجاء تحت عنوان "**السياق والنظرية والتاريخ**". يطرح الفصل الأول منه مراجعة للمحاولات الكبرى للتنظير للعلاقة بين تعاطى المخدرات والثقافة الشعبية. إذ يناقش ما طرأ على الرؤية النظرية من انتقال من دراسة التعاطى كعرض من أعراض الهشاشة النفسية، وعدم الصلاحية والأهلية، وغياب الفرص المتاحة أمام المتعاطين، أو كعرض من أعراض السياسة القمعية، وهو الفهم الذى ميز كثيرا من المقاربات الكلاسيكية المهمة، إلى تحليل يعالج تعاطى المخدرات واستهلاكها كممارسة ثقافية كغيرها من أشكال الاستهلاك الثقافى. فالمخدرات محملة بمعانى، ولا يمكن فهمها إلا بفهم الأطر الرمزية المحيطة بها. وهذه الأطر الرمزية يستغلها المتعاطون فى حكى سيرهم الذاتية، وتصورهم للمخدرات. وقد استعرض الفصل عددا من الأطروحات النظرية، بداية من المنظورات الأنثربولوجية، بالتركيز على تحليلات مارى دوجلاس، ثم عرض إسهام المدرسة الوظيفية فى الوعى بالمخدرات، والدور الوظيفى لها فى الحفاظ على التوازن الاجتماعى أو تهديده، ودور مقاربة الثقافة الفرعية فى فهم ثقافة المخدرات، كثقافة فرعية، حتى إسهامات النظرية الاجتماعية المعاصرة، ممثلة فى تحليلات أنطونى جيدنز، وزيجمونت بومان، وغيرها من التحليلات المعنية بالاستهلاك فى المجتمع المعاصر. وفى الأخير، يبين المؤلف

أن العالم الاجتماعى المعاصر أعقد من عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد جرت تحولات فى تركيبة الرأسمالية العالمية، وفى الإعلام الجماهيرى، وأضحى استهلاك المخدرات غير الشرعية أيسر مع عولمة طرق العرض وشيوع الاستهلاك كممارسة ثقافية عامة. فصناعات شغل أوقات الفراغ Leisure Industries وأماكن "اقتصاد الليل" غدت محورية فى حياة الشباب، ما سهل الاشتراك المكثف فى الخبرات المصاحبة لأنشطة شغل أوقات الفراغ. كذلك يوجد عوامل عديدة وقوية غيرت طبيعة أوضاع الشباب. فقد لاح فى المشهد العام توسع فى التعليم العال، وزيادة عمر المقبلين على الزواج، وتأجيل الشروع فى بناء أسرة جديدة، وهو ما أطال من فترة عدم اليقين والقلق والحيرة التى يعيشها الشباب. وإذ ذاك يخبر الأفراد فى مرحلة الشباب الشعور "بالاستقلالية الفردية" مع غياب المصادر التقليدية لتشكيل الهوية والاندماج فى المجتمع. هذا الوضع المعاصر يخلق سياقا لا يرتبط فيه استعمال المخدرات بثقافة الشباب ولا بجماعة اجتماعية أو طبقة ما، بل تضحى المخدرات سلعة استهلاكية متاحة لمستهلكين من خلفيات اجتماعية متنوعة. وهو ما يؤسس لطرح نظرى ظل محورا أساسيا طول الكتاب، وهو التأصيل النظرى والتطبيقى لفكرة "الاعتياد"، أى اعتياد المخدرات، حيث توجد المواد المخدرة بكثرة وافرة، وتحيط بحياة الشباب، إلى حد الألفة.

ويقدم الفصل الثانى الضغوط الاستعمارية والخطابات المستخدمة من المستعمر حول استعمال الهيروين والحشيش فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ففى تاريخ الاستعمار نجد جذور عدد من الرموز القوية والخطابات التى لا تزال قائمة ليومنا هذا. وفى هذا الفصل تتضح أمامنا الآليات التى تتشكل بها الأبعاد الرمزية للمخدرات عبر الخطابات الطبية والسياسية والشعبية التى لا نجدها فقط فى الوثائق

الرسمية بل وفى الثقافة الجماهيرية سواء تمثلت فى روايات القرن التاسع عشر أو سينما القرن العشرين.

وجاء الجزء الثانى تحت عنوان " **النظر فى أطروحة الاعتياد** "، مكونا من فصلين. أحدهما يتناول أطروحة الاعتياد ليعنى بها التغير عبر جانبين: تغير الاتجاه من المخدرات والموقف منها، وتغير سلوكيات التعاطى، حيث يتضمن ذلك انتشار نشاط تعاطى المخدرات من أطراف وهوامش ثقافة الشباب إلى مركزها حيث تتضمن هذه الثقافة أعمالا منحرفة أخرى يقوم بها الشباب من قبيل الإفراط فى السكر وتدخين السجائر يوميا. واستدل المؤلف على أطروحة الاعتياد هذه بشواهد. منها شاهد توفر المخدرات أمام الشباب. والثانى شاهد "تجريب المخدرات" حيث أدلى 36,3٪ من الشباب فى عمر (14) سنة بأنهم قد جربوا على الأقل مخدرا واحدا، وارتفعت النسبة لدى الشباب البالغين سن ( 19) سنة حيث وصلت إلى 64,3٪. والدليل الثالث هو اعتياد التعاطى. حيث يزداد اعتياد الشباب للتعاطى. والرابع هو المعرفة بالمخدرات فالممتنعون عن التعاطى لديهم معرفة بجلسة تناول المخدرات، فالشباب بمقتضى الواقع ليسوا بعيدين عن المخدرات والمتعاطين لها، سواء فى الدراسة أو التدريب أو العمل أو الخروج فى نزهة. فيما يتناول الفصل الثانى نقد أطروحة الاعتياد عبر فرضين: الأول التشكيك فى صحة ما قدم من تفسير للبيانات المتاحة من مسوح المخدرات، والسعى لطرح تفسير بديل، والثانى يدحض التصور بأن إحاطة بيئة المخدرات بالفرد لا يعنى بالضرورة شروعه مستقبلا فى التعاطى.

أما الجزء الثالث المعنون بـ" **تصوير المخدرات كثقافة شعبية وفى الثقافة الشعبية**"، فتتناول فصوله أبعاد تصوير تعاطى المخدرات فى الوسائط السائدة بداية من البرامج الإخبارية، والمسلسلات الكوميدية، وأفلام هوليود السينمائية، والموسيقى الشعبية، وانتهاءً بأدب المراهقين.

حيث يهتم الفصل الخامس بالموسيقى وصلتها بالمخدرات. إذ يقوم المؤلف بتتبع العلاقة بين تاريخ فن الموسيقى وتقلبات مدارسه الفنية وانتشار المخدرات. فالموسيقيون كانوا يقبلون على تعاطى أنواع بعينها من المخدرات اعتقادا فى قدرتها على تحسين قدراتهم الفنية وصقلها، ومنهم من ظن فى قدرتها على تمكينهم من منافسة خصومهم وتفوقهم عليهم. ولعلنا نذكر فى هذا المقام ما يرتبط فى الأذهان من قصص وروايات تتصل ببعض الموسيقيين العرب، والمصريين بوجه خاص، ترجع مهارتهم وتميزهم الفنى وتفانيهم إلى إقبالهم على مخدرات الحشيش والأفيون، مثلما ارتبط فى التراث العربى من ربط بين إبداعية الشعراء وإدمانهم شرب الخمر. ولم يقف المؤلف عند هذا الأمر، بل يتوقف قليلا عند التحول من الموسيقى الكلاسيكية إلى ألوان من الموسيقى ذات الأصول الأفريقية، وما اتصل بهذا التحول من مخاوف، مخاوف انجذاب الجمهور للموسيقيين الزنوج، وافتتان الفتيات بهم، وارتباط هذه الألوان الموسيقية (الجاز وروك أندرول، والريجتايم) بتعاطى المخدرات. ويستعرض المؤلف سيرا لهؤلاء الموسيقيين الذين تعاطوا المخدرات، وعرف عنهم ذلك، ومنهم شارلى باركر الذى وضع معايير جديدة فى الأداء الموسيقى أواخر الثلاثينات، مما أسهم فى صنع لون جديد من ألوان موسيقى الجاز وهو "البيبوب". ومات عن عمر يناهز خمس وثلاثين عاما عام 1955، ومن بعده سعى الموسيقيون من الجيل اللاحق عليه لتعاطى الهيروين اقتناعا منهم بقدرته على إيصالهم لمستوى الأداء الذى وصل إليه شارلى باركر.

فيما تناول الفصل السادس بالتحليل الأفلام الأمريكية وعلاقتها بالمخدرات. حيث يحلل عددا من الأفلام ليقف على موقعها بين الأفلام السينمائية، وأصولها التاريخية، ليستخلص ما ورائها من دلالات ومعان. ليؤكد فى المجمل على العلاقة القائمة بين قضية تفكك العلاقات الأسرية وتعاطى المخدرات.

واعتنى الفصل السابع ببحث الثوابت الأخلاقية والتوترات والتناقضات التى شابت التغطية الإخبارية وبالذات فى تغطيتها لاستخدام الحشيش وما يتصل بذلك من قضايا الصحة العقلية وأبعاد قانونية. حيث تتبع المؤلف تاريخيا صورة مستخدمى الحشيش، وكيف اعتبر تعاطى هذا المخدر محطة للانتقال لتعاطى المخدرات شديدة الخطورة.

أما الفصل الثامن فقد اهتم ببحث الأطر الرمزية المختلفة الواردة فى التحقيقات الصحفية لإساءة استعمال المواد المتطايرة والمثيرات العصبية. فلقد حاول المؤلف بحث أمثلة دالة على خطاب الأخبار فى تصويره لتعاطى المواد المتطايرة والمواد المثيرة للأعصاب. وذلك ليبين لنا التناقض الصارخ بين أسلوبين مختلفين فى معاجلة نمطين من أنماط التعاطى: تعاطى المواد المتطايرة، وتعاطى المواد المثيرة للأعصاب؛ بالتمييز بين قدر الشباب الواعدين الذين تأثرت أسرهم وحياتهم بفعل تعاطيهم للمواد المثيرة للأعصاب وبين الأحداث المرضى المتوحشين الذين يتعاطون المواد المتطايرة. وهذا معناه أن التناول الإعلامى لاستهلاك المخدرات مرتبط بخطاب عنصرى وطبقى.

ويحاول الفصل التاسع دراسة صورة المخدرات فى الدراما حيث يتم القيام بتحليل نصى للحلقة الأولى من مسلسل "المثالى"، وذلك بتفسير اعتياد استعمال الحشيش والحفاظ على التعاطف مع الجمهور المستهدف، ويتم فيه الاعتراف بعدم شرعية المخدرات، كما يقدم تاجر المخدرات لوقت قصير كشخص غير مبهر. فيما يسعى الفصل العاشر لدراسة صورة المخدرات فى أدب الأطفال. ليبين المؤلف من خلال تحليله الحضور القوى لأطروحة الاعتياد.

ويركز الجزء الرابع من هذا الكتاب، والمعنون بـ"الهويات والممارسات الثقافية والمخدرات"، على أبعاد الممارسات الثقافية المرتبطة بالاستهلاك الشرعى وغير

الشرعى للمخدرات. ويتكون من أربعة فصول. وفى كل فصل نجد اهتماما بمسألة الهوية وارتباطها بأساليب تعاطى المخدرات. حيث يهتم الفصل الحادى عشر بالعلاقة بين الإثنية (الأصل العرقى) والموسيقى الحضرية واستهلاك المخدرات. حيث يبين أن الموسيقى تستفيد من عالم ورموز حياة الشباب الحضرى وخبرات المهمشين ومن عالم المخدرات ورموزه. وبفضل انتشار هذه الموسيقى الحضرية عبر العالم، أصبحت تتجاوب مع شباب الضواحى فى مدن غربية عديدة.

ويركز الفصل الثانى عشر على متعاطيات الهيروين المنخرطات يوميا فى محاولات لترويض طرق التعاطى. فهن يستخدمن استراتيجيات متباينة لاحتواء الآثار الفوضوية للتعاطى على حياتهن وحياة أسرهن. فهن يحاولن إصلاح ما طال هوياتهن من جراء عادات التعاطى.

ويهتم الفصل الثالث عشر بالجسد، وبالتنظير المعنى بدور القوى الاجتماعية فى ضبط المخاطر وتنظيمها. ويبين لنا الفصل أن متعاطيات المخدرات يخضعن لخطابات ضابطة لهن كنساء. إذ يتوقع من المرأة أن تسعى للحفاظ على جسدها وضبطه حتى يتسنى لها أن تؤدى دورها كأم وأن تصون أنوثتها، بينما تدمر المخدرات هذا الانضباط. بهذا المعنى لا يكون التعاطى سوى آلية نسوية لمواجهة إخضاعهن لوظائف حددتها لهن القوى الاجتماعية المهيمنة.

فيما يقوم الفصل الرابع عشر بتحليل عدد من المواد بما فيها النصوص الطبية والأكاديمية، والكتب الخاصة بالحمل والولادة، ومواقع الإنترنت، والمجلات، ومقالات الصحف، لبحث أشكال الضبط الثقافى لاستهلاك المخدرات الشرعية، بالتركيز على مرحلة الطفولة، وما دار من جدل حول استخدام المخدرات لأغراض طبية فى مرحلة الولادة.

أما الجزء الخامس فقد جاء تحت عنوان "المخدرات، السوية، والثقافة الشعبية: المضامين والسياسة"، وهو يتكون من فصل واحد، وهو الفصل الخامس عشر، وذلك تحت عنوان: "هل يوجد معيارية نظامية؟ نحو خريطة وتفسير لاستجابة السياسة العامة للاستعمال غير الشرعى للمخدرات". وفيه ينقل المؤلف الاهتمام من دراسة الممارسات الثقافية المرتبطة باستهلاك المخدرات فى الحياة اليومية، متجها لدراسة العلاقة بين تطبيقات السياسة العامة والاستعمال غير الشرعى للمخدرات. ولهذا الغرض يعود لموضوعات بحثت فى الفصلين الثانى والسابع من المجلد الحالى، أعنى استجابة الحكومة لقضية اتساع مساحة استعمال المخدرات، لكن المؤلف يوسع النقاش للحديث عن إمكانية الوقوف على شاهد أطروحة الاعتياد فى تطور سياسة الحكومة فى التعامل مع قضايا التعاطى.